علوية صبح

كاتبة وروائية لبنانية، صدر لها:
نوم الأيام نصوص قصصية صغيرة صادرة عام 1986.
رواية مريم الحكايا عام 2002 عن دار الآداب، وترجمت إلى الفرنسية عن دار غاليمار في باريس عام 2007، وستصدر بالألمانية عن دار سوركام قريباً.
رواية دنيا عام 2006 عن دار الآداب، تترجم إلى الفرنسية والإيطالية.
آخر أعمالها رواية اسمه الغرام صادرة عن دار الآداب عام 2009.
وروايتا مريم الحكايا ودنيا صدرتا بطبعات عدة بالعربية.
تعمل الكاتبة في الصحافة منذ أوائل الثمانينيات، ولها العديد من النصوص الإبداعية والمقالات النقدية في الصحافة اللبنانية والعربية. نالت جائزة السلطان قابوس للرواية العربية عام 2006، وشاركت في العديد من المؤتمرات الثقافية في العواصم العربية والعالمية، وقدمت شهادات عن تجربتها الكتابية ودراسات عن الرواية والمرأة والإبداع.

أهجس بالشخصية

تتلبسني الرواية لفترة طويلة قبل البدء بالكتابة. أهجس بالراوية (أو بالبطلة الرئيسية)، أراها من بعيد بلا ملامح، ثم مع الوقت تصير قريبة وأليفة. أدرك ملامحها ورائحتها، أتقمّصها أو تتقمّصني. تنوب عني في الكلام (كما في رواية مريم الحكايا أو دنيا)، وأبدأ معها رحلة الكتابة، هاجسة بمقاربة الحياة بها لأقربها وأعثر على حيوات من لحم ودم. وخلال الكتابة أشعر بأني أحفر لأفهم وأعرف وأستكشف هذه الحيوات.

لا أنطلق من تصميم جاهز ولا تكون لديّ من البداية سوى فكرة أولية عن البطلة. الكتابة هي ما يقودني إلى الاستكشاف. ولكل عمل منطقه وبناؤه الفنيان. أحياناً لا أكتب الفصول متتاليةً، ولا أتقيّد بذلك. كما لا أطاوع أحياناً لعبة البدايات. البدايات كما أقول في روايتي الأخيرة اسمه الغرام يمكن أن تكون من المكان الذي نقررها فيه. قد يكون ما نفترضه بداية نصف الطريق، أو قبل أن تنتهي بقليل، لأن الكتابة ليست كالحكي. في الكلام نطاوع متعة الحكي، وفي الكتابة أبدأ حيث تطاوعني الكتابة، وهي التي توصلنا إلى البدايات، وهي التي تجعلنا نستهدي أين نجدها، وأين تنتهي إن أرادت أن تنتهي.

وأفترض أن لكل عمل أسراره، يولد تقنيته الخاصة، من دون إسقاط أو تبنٍّ لتقنية جاهزة سلفاً. فالتقنيات ليست قالباً نسكب فيه ما نود قوله، ويجب أن تكون من روح النص ولحمه. خلال الكتابة أشعر بأن النص أشبه بالجنين التي يتكوّن بمعزل عن رغبة مفتعلة أو خارج سلطة الكاتب/ الأم، وإن كانت الكتابة لا تتم على مساحة معزولة عن الرؤية وقلق الكاتب.

ولأنني لست من أهل اليقين، لا الروائي ولا الحياتي، أروح أنحاز إلى حرية الفن وأكتب انحيازي إلى الحكايات وأنا أحاول أن أفهم بالكتابة وأستكشف عالم الشخصيات. كذلك أنحاز إلى التعرية الفنية كانحيازي إلى تعرية عوالم هذه الشخصيات. وأجدني وأنا أرسم مرويات النساء وأرسم وجوههن وشخصياتهن أدلف إلى حميمياتهن، وأحفر في أدغالهن درباً توصلني إلى مكان السر فيهن. ولا أدري لماذا أجد نفسي وأنا أكتب، مدفوعة إلى شخصيات تبدو نافرة أحياناً، لكنني بالتأكيد أكتب عمّا يقلقني إنسانياً وفنياً. فالقساوة والعنف يوجعانني إلى حدّ كبير، ويغريان قلمي بالذهاب إلى لحم ودم هذا الوجه الإنساني في شخصياتي.

إن فضاء المخيّلة يؤنس وحشتي في الكتابة، واللعب الفني يحرّرها. ولا أستسيغ خيانة حيوات الأبطال بالأفكار، ليس بالمتخيّل. البحث الذي قمت به مثلاً حول بدايات النزوح من الجنوب إلى بيروت لم يعن لي إلا بما يضيء حيوات الأبطال. كأن مثلاً أسأل والد مريم وأمها وخالاتها كيف رأوا المدينة، حين نزحوا إليها منتصف أربعينيات القرن الماضي، مثلما أسأل جيل أبناء الراوية مريم وصديقاتها وكل الشخصيات الأخرى التي ولدت في بيروت، وعاشت انهيار المدينة في الحرب عن شهاداتهم أيضاً فيها، وعن سقوط أحلام تحديثها وعلمنتها. هاجسي دائماً، أن تكون الشخصيات من دم ولحم، كما أشرت، ليتسنّى لها أن تعيش بمعزل عني، إن كانت لها القدرة على ذلك، لأن حمايتي لحيواتها تنتهي بعد الكتابة، وتصير المسافة بيني وبينها كالمسافة بينها وبين القارئ، ولا سيما بعدما يحتل أبطال رواية جديدة نفسي لاكتشاف حيوات أخرى، تماماً كما احتلتها مريم وأبطالها في زمن كتابتها.

لا أستطيع أن أكتب كلمة ما لم تتلبّسني الشخصية. كأن أصير أنا هي، أو أصدق أنني أعرفها أو حقاً أنني سأتعرف عليها يوماً. غير ذلك لا أستطيع الكتابة. مريم مثلاً أثناء كتابتها، تحولت من شبح إلى حقيقة بالنسبة إلي. أحياناً كنت أصدق أنها صديقتي وأنني أعرفها، وأحياناً أخرى كنت أسأل نفسي وأنا أسير في الشارع: ترى من هي مريم بين المارة، هل ستتصل بي امرأة يوماً تقول لي أنا «مريم»؟ ومثلما ضاع وجهي في وجهها كذلك ضاع في وجه توأمي المسرحي زهير. لعبة المرايا كانت تتسحب إليّ، حتى استطعت كتابتها. كنت أحسب أحياناً أن جسدي الذي شبّهته مريم بكبسولة أنتيبيوتيك ضائع في جسد المدينة، كما ضاع جسد البطل حمودي المريض أيضاً في جسد المدينة المخرب والمريض. كانت لعبة المرايا تتلبّسني حقاً، وأحسب أني موزعة في الشخصيات كلها. وأعتقد أنني خلال الكتابة كنت أنساق لسلطة الشخصيات دون أن أحاول إلباسها لغتي، أو أن أتسلط عليها أو أستبد بها. أحاول أن أفهم الشخصية وأستكشفها وأتعلم منها كيف يجب أن أحكي حكايتها حتى يحق لي أن أحكيها.

هذا الحق ربما ادّعاء للكاتب. وربما الأصح هو وهم لا يستطيع النجاة منه ما دام يروي الحكايات. الأكيدة منه أنني أكتب دون أن أمتلك إحساس الكاتب بسوبرمانية لغته تجاه أبطاله، ولإحساسه بأنه متفوّق ومختلف بوعيه ولغته، لكن ذلك لا يعني بالطبع أن هذه الشخصيات لا تحمل رؤى الكاتب أو انكساراته وإخفاقاته.

لا أدري لماذا أهجس بهذه الشخصية أو تلك، فالأمر معقد جداً. أحياناً تقودني جملة أسمعها إلى رسم شخصية أمامي أو تخيّلها لغة ما أو لهجة أو موقفاً أو حالة ما قد تولد الشخصية.

ولو تساءلت من هي مريم في رواية مريم الحكايا، وكيف ولدت، ولماذا أخذت الكلام عني، ومن هو زهير المسرحي؟ ولماذا مريم توأمي، وكذلك زهير، فليس لدي إجابة كاملة عن هذه الأسئلة. ثمة أسرار كثيرة للعمل الفني، بعضها ندركه، فيما لا ندرك الكثير منها. أنا نفسي تساءلت كثيراً، ما الذي حدا بي إلى الإحساس لتخيل بطلة رواية تحكي حكاياتها وذاكراتها، وهي تطاردني طوال الرواية بسؤالها عن اختفائي وصمتي، وعن الحكايات التي كان من المفترض أن أرويها أنا والدكتور زهير، كما تقول الراوية مريم.

السؤال حقاً لا أدرك جوابه إلا بما يصلني من أسئلة بطلتي مريم، فالكتابة حالة معقدة من تشابك الوعي الفني واللاوعي الإنساني والذاتي والوجودي. ما أدركه فقط أنني كلما عرّيت الشخصيات، أعرّي أيضاً تقنياتي. وما أدركه أنه مثلما راحت تكشف الأسرار، رحت أستكشف تقنيات وأشكك في البناء الروائي التقليدي والكتابة الممحوّة. أي إن مريم لجأت إلى المحكي فيما كتابتي وكتابة المسرحي زهير ممحوّة!

لا أدري لماذا ممحوّة!

ما أدركه فقط هو الأحاسيس التي قادت إلى ولادة مريم وتقنياتها الكتابية. ما أدركه أنه خلال صمتي لسنوات طويلة رافقني إحساس عميق بأني قد أكون بين المفقودين في الحرب. هذا الإحساس رافقني طوال فترة انقطاعي عن الكتابة لسنوات بعد انتهاء الحرب اللبنانية. وطوال فترة

الانقطاع تلك بدت ذاكرتي كأنها ممحوة، وجودي أشبه بوهم شديد. أشك في وجودي لأني لا أستطيع أن أعيش الحياة بلا كتابة. حالة الضياع والشك بي وبالكتابة وما آلت إليه الحرب... كل ذلك ولّد إحساسي بفقدان الذاكرة.

شغلني طويلاً سؤال كيف أكتب وأكتشف ذاتي وطريقتي في السرد والمرويات. وأعترف بأني مزّقت ورميت أكثر بكثير مما أبقيت. وحدث ذات يوم أن كسر سارق زجاج سيارتي وكان فيها أوراق لي عن الحرب في حقيبة جلدية. كنت سعيدة لمصير تلك الرواية التي سبقت مريم الحكايا وكان مصيرها الضياع والامّحاء والوحل على يد سارق. هل حدث أن رماها السارق في الماء والوحل؟ أو ربما قدت الرواية (عن الحرب) إلى ذلك المصير في جنون المتخيّل الذي اعترف بأسراره هنا. ما حدث أن السارق كسر زجاج السيارة وفقدت أوراقاً تطايرت في الهواء وامتزجت بماء المطر. لكن أسرار التقنيات تولدها المخيلة أو الواقع. أنا لا أصدق سوى ما أكتبه وسوى ما أتخيله. أحياناً أسأل نفسي الآن، هل فعلاً كان هناك سارق أم أنا تخيلته؟

ما أنا أكيدة منه هو أن حاجتي إلى تخيّل مريم كانت على ما يبدو أشبه بحاجة من يريد محو النسيان والعثور على ذاكرة كتابية تعيد وجودي على قيد الحياة، وتعيد قدرتي على النطق. تخيلتها تروي بدلاً مني إثر اختفائي، كما تخيلت البطل المسرحي زهير الذي جعلته توأمي في الكتابة. أخذت الكلام مني وراحت تروي ذاكرتها. ووجدت نفسي وأنا أكتب أن عليّ أن أختار بين موتي وموت زهير. تألمت حين راح مصيره للضياع والموت لعجزه عن فهم الحرب والكتابة عنها. صار مصيره أشبه بمصير تخيّل تلك الرواية التي كتبتها عن الحرب، ومصيرها في المحو كان أشبه بمصير الشخصيات ومصير المجتمع الذي تناولته فيها.

وفي خروج مريم إلى النور من رواية محاها الوحل والماء، كان لا بدّ من حكاية أخرى (ترويها مريم) لأن الحكايات لا تروى مرتين. وما بين علوية المشكوك في وجودها في بداية الرواية، وعلوية التي عثرت عليها مريم في آخرها، كان لا بد من أن أخفي زهيراً أو أقتله بألم. إذ وجدتني مريم في آخر الرواية وعثرت على علوية تتأهب للكتابة وهي تعاني من ألم يدها التي تكتب بها، كرمز ربما لوجودها على قيد الحياة بعدما كتبت.

لقد برزت مريم كحاجة لتغيرات وفضاء الأسئلة على الذاكرة المكتوبة والحرب اللبنانية وتجارب الأبطال والمصائر التي آل إليها الجميع. ولتقوم مريم بحركة توليدية روائية داخل لعبة الفن وميدانه الجمالي. كذلك تولدت لعبة المرايا بيني وبين مريم وزهير، ثم بين الشخصيات، كما بين المدينة والقرية، وأجيال النساء، فيما الحكايات تتناسل وتتقاطع وتختلط في سياق السرد الدرامي الذي كان يضغط بي إلى حد الانفجار، لكن حريتي في تقنيات السرد كانت تنقذني وأنا أتنقل بسهولة ويسر من حكاية إلى أخرى، أقفز بين الأزمنة، أمزج الرواية بالحياة، أجاور الشخصيات، العامية بالفصحى، أو الشخصي بالعام ضمن بناء فني لم تكن الحكايات لتروى بمعزل عنه.